التصوف الصحيح وأثره

للدكتور محمد يوسف موسى
الأستاذ بجامعة القاهرة

كان من الطبيعي أن يكون فى الاسلام تصوف ، وأن يكون من أبنائه متصوفون ، ذلك بأن هذا الدين يحث على العلم والمعرفة ، ويعمل على تطهـــير النفس من المادة وأدرانها حتى تصل إلى أعلى مراتب السمو والـكمال .

وقد قضى الإمام حجة الإسلام الغزالى عمره الخصب العريض فى عـلم الكلام والفلسفة وغيرهما من العلوم الاسلامية ، ثم شك فى أواخر حياته فى العلوم التى عرفها وفى جدواها فى الوصول إلى المعرفة الحقة ، وبعد تجرده عن الدنيا وجهاد استمر نحو عشر سنوات آمن بالتصوف وعظيم أثره فى نمو النفس ووصولها إلى المعارف التى لا ريب فيها .

ولهذا نجده يقول فى كتابه القيم « المنقذ من الضلال » بعـد أن قص علينا ما كان منه ومن تجرده عن الدنيا وعزلته الناس ابتغاء الوصول إلى المعـرفة : « ودمت على ذلك مقـدار عشر سنين ، وانـكشف لى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمـكن إحصاؤها واستقصاؤها . والقدر الذى أذكـره لينتفع به : هو أنى علمت يقيناً أن الصوفية هم السالـكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق . بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبـدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم ، فى ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به » .

وطريقـة هؤلاء الصوفية ، الذين يرفعهـم الامام الغزالى فوق كل الطرق العالية

تتميز بأن أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، وبأن مفتاحها هو استغراق القلب بالكلّية بذكر الله ، وآخرها هو الفناء بالكلية فى الله . وحينئذ سلك المتصوف الطريق الحق ، تكون المكاشفات والمشاهدات ، ويصل إلى معرفة الحقائق العلوية ، وينتهى إلى الوصول إلى حضرة الله سبحانه وتعالى .

وهـــذا الغرض يتطلب من سالك الطريق أن يبدأ بتطهير نفسه من الأخلاق السيئة ، وبالابتعاد عن الدنيا ومفاتنها وشهواتها ، وبذلك يكون قلبه كالمرآة الصافية مستعدا لتقبل فيض الله تعالى عليه ، لأنه قبل التحلية تجب التخلية كما يقولون . ثم عليه بعد ذلك أن يسلك للمعرفة كل سبيل ، ومن هذه السبل معرفة القرآن والسنة والعلوم المختلفة الإسلامية . ومتى وصل بعقله وتعلمه إلى ما يستطيع إدراكه من العلم ، وصفا قلبه وتطهرت نفسه من قبل ، لم يكن عليه — كما يقول الغزالى فى كتابه ميزان العمل — إلا الاقبال بكل الهمة على الله تعالى ، والاستعداد والترصـــد لفيضه الذى يصطفى به من يشاء من عباده المخلصين ، وحينئذ تفيض عليه الرحمة ، وينكشف له سر الملكوت ، وتظهر له الحقائق من لدن الله العليم الحكيم :

ومصداق هذا القول هو أقوال شيوخ الطائفة التى ذكر الامام القشيرى فى رسالته الكثير منها ، كما هو أيضا مايؤخذ من كلام الامام الغزالى فى كتبه : المنقذ من الضلال ، وميزان العمل ، وإحياء علوم الدين .

فهذا القشيرى نفسه يذكر أن الصوفى هو من صدق الله فى معاملاته ، ثم تنقّى عن أخلاقه الرديئة وآفاته ، ثم طال بالباب وقوفه ، ودام بالقلب اعتكافه ، فحظى من الله تعالى بجميل إقباله . ويقول الجنيد ، وهو سيد هذه الطائفة وإمامهم فى رأى القشيرى: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات.

فى هذين القولين ، وما ذكرناه عن الغزالى أول الحديث ، أن صحة التصوف تقوم فيما تقوم عليه على البعد عن الدنيا ومفاتنها ، وعلى تنقية القلب من أخلاق السوء

وعلى الاقبال على الله وذكره ؛ ليكون حقيقا بفيضه تعالى ورحمته ، والوصول إلى حضرته سبحانه وتعالى أمره .

والتصوف الحق يقوم أيضا على بذل الجهد فى سبيل العلم الصحيح ، وذلك حتى يكون له بعد هذا أن ينتظر من الله علم مالم يستطع الوصول إليه بعقله ونظره ؛ وفى هذا يقول أبو القاسم الجنيد أيضا : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر ؛ لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة .

وللتصوف الحق وأصحابه علامات وأمارات بها يمتاز عن التصوف الزائف وأصحابه الأدعياء . فهذا أبو حمزة البغدادى يقول : علامة الصوفى الصادق أن يفتقر بعد الغنى ، ويذل بعد العز ، ويخفى بعد الشهرة . كما يقول الجنيد : الصوفى كالأرض يطؤها البر والفاجر ، وكالسحاب يظل كل شىء ، وكالمطر يسقى كل شىء ، ويقول : إذا رأيت الصوفى يعنى بظاهره فاعلم أن باطنه خراب .

وبعد ! إذا كان التصوف الحق يتفق والاسلام ، وإذا كان له هذا الأثر الكبير فى تطهير النفس وسموها ، وفى الوصول إلى المعارف العالية التى يعز على العقل إدراكها ، وفى تجنب أخلاق السوء والتحلى بالأخلاق الفاضلة نقول إذا كان الأمر كذلك ؛ فمن الخير أن نعمل له وأن نفيد منه لخير الأفراد والجماعات والأمة بأسرها .

هذا ، ويجب ألا ننسى أننا فى عصر يشقى فيه العالم شقاء كبيرا بسيطرة المادة على الأفراد والجماعات إلا من عصم الله ، وعلى الدول جميعا ، وذلك بسبب نبذ قادة الدول تعاليم الأديان السماوية الصحيحة وراءهم ظهريا . ولعله لا منجاة للعالم من هذا الكابوس الذى يجثم على الصدور وراء هذا الضلال الذى أعمى البصائر والعقول ، إلا بالرجوع إلى الدين الصحيح والأخذ بنواحيه الروحية التى تدعو إلى التعاون والسلام .

ولكن علينا مع هذا وذاك أن نؤكد أن الدعوة إلى التصوف الحق ليست دعوة إلى التبطل والعيش فى رخاء على حساب الغير من الجماهير ، فما كان سيدنا عمر

ابن الخطاب مثلا — وهو سيد العارفين الواصلين — إلا مجاهدا مكافحا معرضا فى خاصة نفسه وأهله عن طيبات هذه الحياة الدنيا وزينتها ومكانتها . وهذا يتطلب منا ثورة على ماليس شرعيا ولا صحيحا ؛ وجهاد فى سبيل إصلاح الفاسد وتقويم المعوج ؛ وبهذا وذاك نصل بعون الله القوى الحكيم إلى ما نبغيه لأنفسنا وللأمة الإسلامية من الرفعة والسمو والمجد وبذلك يعود لنا مقام الصدارة وتوجيه العالم إلى حياة العز والكرامة والإخاء والسلام ومن الله التوفيق .

محمد يوسف موسى

سفينة الوحـــدة

قال رسول الله ﷺ

«مثل القائم عند حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا فى سفينة فصار بعضهم فى أعلاها وبعضهم فى أسفلها فكان الذين هم فى أسفل السفينة : لو خرقنا فى مكاننا خرقاً لنشرب منه حتى لا نمر على من فوقنا ؛ إن أخذوا على أيديهم نجوا ، ونجوا جميعا وإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا »

بعد أربعة عشر قرنا يطل علينا النور النبوى ليضرب لنا الأمثال التى نهتدى بها فى حاضرنا .

إن الأمة العربية اليوم التى تمتد من المحيط إلى المحيط ؛ تركب فى سفينة واحدة . فإذا تركنا المفسدين يفعلون ما تصور لهم نزواتهم وشهواتهم هلكوا وهلكنا ، وإذا اخذنا على أيديهم نجوا ونجونا .